غابر الاندلس وحاضرها

(١٨) ذكرى مؤلمة

مضت اعوام تلتها اعوام ، والنفس تحدث بالارتحال الى الاندلس المحبوبة ، تستنفض معالمها ومجاهلها ، وتستبطن معاهدها ومضانها ، فتتدبر ، وتذكر ، وتستفيد ، وتفيد . ولما اتاحت لها الاقدار ، بلوغ تلك الامصار ، عرض لها ما كدّر صفو تلك الذكرى ، ذكرى التطواف في الاندلس بعد عزها للاعتبار ، بالدمن والاحجار ، واستنطاق الآثار ، واستقراء الاخبار ، لمعرفة عمل العرب في تلك الديار . .

اتفق نزولي غرناطة في اليوم الثاني من كانون الثاني ، اليوم الذي خرج فيه ابو عبد الله آخر ملوك بني الاحمر من عاصمة الاندلس ، وانتقلت احكامها الى ايدي الغالبين من الاسبانيين ، والجرس يدوي في كنيسة الحمراء دويًا متواصلاً لا متساوقًا مدة اربع وعشرين ساعة ، احتفالاً بهذا اليوم الذي يعده اهل اسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من اسعد ايامهم الغر . احتفلوا به ضروب الاحتفال ، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة اديها يومئذ شيخ مدينة غرناطة في النزل الذي حللته في جوار الحمراء واسمه نزل « واشنطون » عَلَى اسم واشنطون محرر اميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر استيلاء اجدادهم على آخر ارض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم .

تذكرت ذاك اليوم المشؤوم ، وقد رفع الصليب الفضي على اعلى برج في الحمراء اشارة الى ظفر الاسبان الاخير وخروج العرب من هذه الديار ، وقد اخذ ابو عبد الله بن الاحمر يتحفز في حاشيته ليخرج من الحمراء قبل ان يبغته العدو فيها ، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج الى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكي ، وامه ترافقه وتقول له : لا تبك كالنساء ملكاً لم تستطع ان تحافظ عليه كالرجال .

كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوي وقد احتفلوا به حتى اليوم اربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم على اعدائهم ويومًا تمت لهم فيه وحدتهم القومية

والدينية ، وقد مثلوا افظع مأساة ارتكبتها انفس متعصبة جاهلة ، وسلكوا للخلاص من مخالفيهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا ارضهم وحلوادياراتهم ، وهم في رفعة ومنعة ، وغبطة وسعة . يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذراريهم يحفزون ارواحهم ليوقظوها ، و يهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما وقع لهم في سالف العصور وليعلموهم ان غلبة سنة ١٤٩٢ وان كانت من باب تسلط الجهل على العلم الا انها دلت على ان الثأر لا ينسي ولو بعد ثمانية قرون .

وما كان اجدر بالعرب ان يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الاندلس من ايام البؤس ، المشتملة بالحزن ، المملوءة بالاستعبار ، يتناشدون فيه التعازي والمراثي ، و يتطارحون حديث محنة مضت ، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد ، وشرر شرها لم يزل يتولد و يتوالد .

قيل ان اناساً من جالية الاندلس في بر العدوة ما برحوا الى اليوم وقد انقضت اربعة قرون على مغادرتهم بلداً نبت لهم فيه العز ، واثمر المجد والسعد ، يخلف الوالد منهم لبنيه في جملة مخلفاته ، مفاتيح داره في الاندلس على امل ان يعود اولاده اليها ذات يوم ويفتحوها وينزلوها . تذكار ان عده بعضهم في باب الهزل ، وقيده في سجل المستحيلات يحوي ولا جرم في مطاويه اجمل العظات ، واعظم التذكارات .

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله ان يقيم كل سنة المآتم على ماحل به خصوصاً في البلاد التي يعبث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فان بعض العناصر الاوربية كالاسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم في الريف من بلاد مراكش ان يجلوهم عنها بعد ان تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرناً اقاموا خلالها مدنيات وانشأوا امجاداً لهم ودولات .

ان العرب الذين انشأوا من العدم مدنية الاندلس وقاموا في عصور الظلمات باعمال لا يكاد يصدق الناظر اليها انها بنت قرائحهم ، وثمرة عقولهم ، لو لم تتناصر على ذلك اصدق الروايات ، لا يعجزهم اليوم ، والعصر عصر النور ، ان يقوموا بمثل ما عمله اجدادهم ، لو نفس خناقهم ، وملكوا زمناً قياد انفسهم . بعض اهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره ، وامامه اسبانيا

والبورتقال اللتان تأرتا لنفسهما من مستعبديهما بعد قرون ولم تكونا في رقي العرب اليوم عدداً وعدداً ، ومضاء وغناء .

اضعف امة اليوم في الغرب لا يبلغ عدد اهلها عدد اهل اقليم واحد من اقاليم العرب او قطر من اقطارهم تتناغى الليل والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر اجدادها وتقدس اعمال نوابغها ورجالها ولا تنسى يداً للمحسن اليها ، ولا اساءة مجرم جان عليها . العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبي اوربي ونشأت لهم حكومات في شبه جزيرة ايبريا وجزيرة صقلية وسردانية فارتكبوا بذلك جناية في عرف اهل تلك الديار ، افليس من العدل ان تغتفر لهم هذه الهفوة او الغزوة ، في جانب ما حملوه الى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات ، ومستحسن الآداب والاخلاق . العرب حملوا الى الاندلس حضارة رائقة ، ونظاماً محكماً ، احلوهما محل الفوضى والتوحش ، والسخافات والخرافات .

تود كل امة اليوم مهما بلغ من تراجع الحضارة بينها ان تحكم نفسها بنفسها وتمثل شخصياتها ومقدساتها ، فهل ينال العرب هذه الامنية وهم ليسوا دون بعض الامم الاوربية التي اخذت تتمتع الواحدة تلو الاخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل امم اوربا بحضارتهم الانكليز والالمان والفرنسيس ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد في الحضارة والنور .

(١٩) جلاء المسلمين وتنصيرهم

لما استولى العرب المسلمون على الاندلس لم يكرهوا احداً من سكان البلاد الاصليين على الدخول في دينهم ، بل اظهروا التسامح المقبول الذي يأمرهم به الدين الحنيف ، واطلقوا للناس حريتهم في ذلك ، فكان بعض الاسبانيين يدينون بالاسلام برضاهم .

فعهد العرب اذاً في الاندلس كان عهد تسامح وحرية ، لم تعهده من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحي الا دعاته المفرطون ، ممن كانوا يقفون على ابواب المساجد والجوامع ، ويدعون المسلمين الى دينهم ، ولا جوزوا اخذ مال احد من اهل ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة ، وساووهم في جميع الامور بانفسهم .

مثال من لطف الحكم تعامله الفاتحون من كتابهم فلم يحيدوا عنه قيد غلوة ، وهم في

عز سلطانهم ، والقول الفصل في الارض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة .

هكذا فعل العرب في ابان قوتهم ، فانظر ماذا صنع الاسبان يوم قوي سلطانهم وكيف عاملوا العرب نقلاً عن شاهد العيان قال :

لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلّش عام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التي تلي بلش وقرى جبل منتميس وحصن قمارش خرج اهل بلش من بلدهم مؤمنين ، وحملوا ماقدروا على حمله من اموالهم فمنهم من جوّزه العدو الى ارض العدوة ومنهم من اقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار الى ارض المسلمين التي بقيت بالاندلس .

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة و بلش وجميع الجهات الغربية لم يبق للمسلمين في تلك الناحية ملجأ . وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت في صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها وفي سنة ٨٩٤ خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة .

وكان صاحب قشتالة كثيراً مايستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم ، ولطالما امر بهدم المدن والقرى التي يستولي عليها بهني بانقاضها مسوّرات في بضعة ايام كما فعل في غرناطة . ومن جملة الشروط التي شرط اهل غرناطة على ملك قشتالة ان يؤمنهم في انفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بايديهم ولا يغرمون الا الزكاة والعشر لمن اراد الاقامة ببلدة غرناطة . ومن اراد الخروج منها يبيع اصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن اراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع اصله ، ويحمل امتعته ، ويحمله في مراكبه الى اي ارض اراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثلاث سنين ، ومن اراد الاقامة من المسلمين بغرناطة فله الامان على نحو ماذكر وكتب لهم بذلك كتاباً ، واخذوا عليه عهوداً ومواثيق في دينه مغلظة . و بعد ذلك اخلى المسلمون مدينة الحمراء كما اخلوا غرناطة ودخلها الاسبانيون . ولما سمع اهل البشرة ان اهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى ارسلوا ببيعتهم الى ملك الروم ودخلوا في بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالاندلس .

ولقد سرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز الى الساحل فصار كل من اراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يبيع جنانه وارض حرثه وكرمه وفدانه باقل من ثمن الغلة التي كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والامتعة ومن المسلمين من طمعوا في عناية ملك النصارى بهم فاشتروا اموالاً رخيصة وامتعة وعزموا على البقاء في الاندلس .

ثم ان الملك امر الامير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرش من قرى البشرّة فارتحل بعياله وحشمه واملاكه واتباعه ثم ظهر له ان يصرفه فبعث للمراكب تأتي لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن اراد الجواز فركب الامير محمد ومن معه في تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة ففاس من عدوة المغرب .

واخذ ملك الاسبان بعد حين ينقض الشروط التي اشترطها عليه المسلمون ، وشرع يفرض عليهم الفروض ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الاذان ، وامرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارباض والقرى وبعد ذلك دعاهم الى التنصر واكرههم عليه وذلك سنة اربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كرهاً وصارت الاندلس كلها نصرانية . وامتنع بعض اهل الاندلس من التنصر كأهل قرية ونجر والبشرّة واندرش وبلفيق فاحاط بهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبى نساءهم واخذ صبيانهم وسلب اموالهم ونصرهم واستعبدهم . وامتنع اناس في غربي الاندلس من التنصر والتجأوا الى جبل وعر منيع فلما امتنعوا عليه وقاتلهم فلم ينل منهم منالا اعطاهم الامان على ان يجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين على ان لا يسرح لهم شيئاً من اموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للاسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة .

قال السلاوي : التزم اهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمه ولما نقض الشروط وهي سبعة وستون شرطاً عروة عروة ومنها اقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على احد منهم الا بشريعتهم وان تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك الى ان آل الحال لحملهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وكان اهل الاندلس كثيراً ما يهاجرون الى بلاد

الاسلام غير ان عامتهم كانوا قد تخلقوا باخلاق العجم (غير العرب من الاسبان) واثر فيهم ذلك اثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ونشأة اعقابهم بين اظهرهم الى ان كانت سنة ست عشرة والف فهاجر جميع من لم يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها وفي خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية [1]

قال المقري : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى انهم احرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم اعوام سبعة عشر والف فخرجت الوف بفاس والوف اخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج طوائف بقطاونين وسلا والجزائر وعمروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم [2] ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام .

***

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقي بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا او الزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية اي الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الخمياده — Aljamiado) ووجه التسمية ان العرب يسمون كل ما ليس بعربي اعجمي وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية اي الاسبانية باسم « الاعجمية » ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله في اللغات الافرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاجاميا) ولما كان اهل اسبانيا يقلبون اغلب الجيمات خاءات قالوا (الاخاميا) او (الخميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد ان سكنوا حركة اللام (Alj amia) وعلامة النسبة عندهم do توضع في آخر الكلمة فبذلك قالوا (Aljamiado) اي الاعجمي . (السفر الى المؤتمر)

(٢) قال ابن ابي دينار ان المهاجرين من الاندلس الى تونس سنة ١٠١٧-١٠١٨هـ كانوا خلقاً كثيراً فاتسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا

هذا ما رواه مؤرخو العرب واليك ما قاله مؤرخو الافرنج في هذه الكارثة : جاء في التاريخ العام للافيس ورامبو : صحت النية سنة ١٦٠٩ على نفي العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصراً خاصاً عصى على التمثل ولم ينزل عن مشخصاته ومميزاته على كثرة ما بذل فيليب الثالث من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل ما يمكن لاهلاكهم فعمدت الحكومة الى اخراج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولانجاز وحدة اسبانيا وانقاذ البلاد من اولئك المخالفين سراً للاتراك والانكليز والفرنسيس على حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهنري الرابع يضع خططه السرية فحاذرت اسبانيا العواقب وقام رئيس اساقفة بلنسية يدعو الى طرد العرب مدعياً ان منهم تسعين الفاً يستطيعون حمل السلاح واذا اغار على اسبانيا عدوها تسوء حالها ويحرج موقعها . واذ كان القشتالي كسلاناً فقيراً كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التي اكسبتهم غنى بفضل اقتصادهم فدى رئيس الاساقفة ان مما يخشى منه ان يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بنسيجيين الى العدم والشقاء . وقال غيره انهم يدخرون على الدوام وعليهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التي تقرض اسبانيا . وعلى هذا كان من التعصب الديني ان ففي على العرب . ولما تعذر تنصيرهم رأوا ان الطريق الوحيد الى الخلاص من خطرهم المادي والمعنوي يكون بطردهم فقوي نفوذ رجال الكهنوت على ممثلي طبقات الاشراف في البلاد وكانت عقول هؤلاء اكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب في بلادهم لانهم عاملون ينفعونهم بعملهم ويدرون عليهم ربحاً كبيراً فقاموا ينكرون الشدة التي ارتأى ان يعمد اليها المجلس والخبر نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب في بلنسية والاندلس ومرسية وقشتالة وارغون وكتلون ان غربوا (ايلول

ـ في عدة اماكن وبنوا اكثر من عشرين بلداً فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الاشجار ومهدوا الطرقات بالكرابط للمسافرين وصاروا يعدون من اهل البلاد . وذكر السيد حسن حسني عبدالوهاب من علماء تونس في رسالة بالافرنسية ذكر فيها اصول التونسيين انه دخل تونس في القرنين ونصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الاندلس لا اقل من مئة الف اندلسي وان الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلسيين نزلت مدينة تونس واختلطت باهلها وقلدهم ملوك بني حفص فيها خطط القضاء والادارة والتعليم .

١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا الى افريقية حيث هلك عدد كبير منهم وثار اربعون الفاً منهم فاعتصموا في جبال بلنسية فذبحوا او استعبدوا فافقدت اسبانيا بهم على اقرب تقدير من خمسمائة الى ستمائة الف من احسن العاملين في الزراعة والصناعات وعجلت بذلك خرابها واعملها هذا ابتاعت وحدتها الدينية بالثمن الغالي وفرح الرأي العام الاسباني اذ ذاك بما تم في هذا الشأن وعدوه من اعظم الاعمال التي قامت في عهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء ! وقال مؤرخ اسباني : يالسعادة ملك توفق الى ان يعمل هذا العمل من طرد العرب . ولكن الامم خارج اسبانيا عدوا عمل الاسبانيين من تغريب العرب جنوناً بل وصفه ريشليو بانه افظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون .

وفي التاريخ العام ايضاً ان خضوع العرب في اسبانيا قد اقلق ملوك الكاثوليك[1] وفتح امامهم مسألة تطالوا الى حلها بما عهد في عنصرهم من المضاء الوحشي وبما اشتهرت به قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فرأوا ان بعض مئات الالوف من الاسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين وهم كثير نسلهم لا يعلم ماذا يكون منهم . وهم على ما هم فيه من الغنو يغتنون و يعملون فاشتد القلق من قوم يخالفون الاسبانيين بحضارتهم بل يعجبون بها ولهم ميول وعقائد وعواطف تخالف ما عليه الجمهور فبدأوا بالاسرائيليين حتى ان ميكل لوكاس اعظم سادات قشتالة ذبحه سكان جيان امام المذبح في الكنيسة سنة ١٤٧٣ لاتهامه بالعطف على الاسرائيليين .

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ ان اضطر الوف من اليهود في معظم مدن قشتالة ان يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع الى دينه الاصلي او كان ظاهره مسيحياً وقلبه وعاداته قلب اسرائيلي وعاده . وكان منهم طبقة غنية محترمة . وفي سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فآثروا الثاني الا ان ديوان التفتيش لم تأخذه بهم رحمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب

(١) يريد ملوك اسبانيا فان ملك اسبانيا لا يزال الى اليوم يدعى في الرسميات صاحب العظمة الكاثوليكي :

Sa Majesté' Catholica

الكردينال كسيمنس [1] الذي عمد الى تنصيرهم بالشيع الطرق من الحبس والشدة واخذ الاولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا الى السلاح نقض ما اعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا ان يتنصروا على ان يهجروا بلادهم فانهم لم يسلموا ايضاً واشتد ديوان التفتيش في مراقبتهم وكان الاسبانيون يرون في عمل هذا الديوان الديني سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرّم .

وقال رينالخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت ان توهم الناس انه لا سبيل الى قيام وحدتها الا بنفي اليهود سنة ١٤٩٢ ونفي العرب (١٦٠٩) فسار مئات الالوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم في الطرق عشرات الالوف فحرمت اسبانيا من احسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين واطباءها الحاذقين وقد قتل في اسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الديني نحو مئة الف انسان على الاقل ونفي منها مليون ونصف و بذلك خربت مدنيـة تلك البلاد الجميلة .

وقال سيديليو : كان طرد العرب من اسبانيا من موجبات تأخرها كما وقع لمدينة ثانت يوم طرد منها من كان مخالفاً للكثلكة فاضر ذلك بالصناعة الفرنساوية . وقد تمكن الكردينال كسيمنس من تعو ير جميع آثار المسلمين وامر باحراق ثمانين الف مخطوط عربي في ساحات غرناطة .

(٣٠) سقوط الاندلس

كان العرب في الاندلس في جهاد دائم مع اعدائهم منذ وطئ طارق بن زياد وموسى ابن نصير ارضها ، ورفعوا علم الامويين على ربوعها ، ودفعوا باعدائهم الى اقصى الشمال . يسكن الجلالقة وغيرهم حيناً اذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة ، ومتى شاهدوا اختلاف امور العرب او آنسوا من بعضهم ميلاً اليهم او نزوعاً الى الاحتماء بهم لينالوا

(١) هو مرشد ايزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة حكم اسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكي مات سنة ١٥١٧ وقد كان من اعظم من قضوا على العرب ومدنيتهم على ما مر بك في الفصول السابقة .

من خصومهم يحملون حملات منكرة ، ويقاتلون اعداءهم بكل ما فيهم من قوة ولذلك قلت غارات الاسبانيين والبرتقاليين على البلاد التي نزلها العرب على عهد دولة بني امية اوائل المئة الخامسة وان كان الثوار لم ينقطعوا تماماً في الداخل عن مجاذبة الامر بين حبل السلطة .

ثم فسدت عصبية هذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الاندلس واقتسموا خطتها ونافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزا كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بانفه و بلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بالقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الاندلس ودعى نفسه ملكاً فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وامثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور

مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورة الاسد

او كما قال ابن حزم : فضيحة لم يقع في الدهر مثلها اربعة رجال في مسافة ثلاثة ايام في مثلها يسمى كل واحد منهم بامير المؤمنين و يخطب لهم في زمن واحد احدهم في اشبيليه والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة . واصبح العرب والبربر في خصام مستديم والجميع في خلاف مع اهل المغرب الاقصى من الجنوب وفي حروب مع بقايا الامم الاسبانية والبرتقالية من الشمال والغرب .

سقطت الاندلس لتتشتت اهواء امرائها واصبح بعضهم « ولاهم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به ايامه » واسترسلوا الى اللذات ، وركنوا الى الراحات ، واغفلوا الاجناد ، واحتجبوا عن الناس ، ولم يعودوا ينظرون في الملك ، ومنهم من قتل كبار قواده ، ووسدالامور الى الضعاف ، فكثرت المظالم والمغارم ، وكثر الثوار مرات بشرق الاندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وهكذا تبدد شمل الجماعة « فضبط اشراف العمالات ازمة امورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فاتوا من ذلك بكل شنيعة » .

قال ابن حزم : كانت طرطوش وسرقسطة وافراغه ولاردة وقلعة ايوب في يد بني هود و بلنسية في يد عبد الملك بن عبد العزيز والثغر اي ما فوق طليطلة من جهة الشمال في يد بني رزين وطليطلة في يد بني ذي النون وقرطبة في ايدي ابناء جهور

واشبيلية في يد بني عباد ومالقة والجزيرة الخضراء في يد بني برزال من البربر والمرية في يد زهير العامري ثم ابن صمادح ودانية واعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) في يد مجاهد العامري وبطليوس وبابرة وشنترين ولشبونة في يد بني الافطس واصبح كل امري وما اختار من الالقاب والاسماء حتى ان المستعين لما جلس على عرش الخلافة قال للناس اجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما احببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة في ايامه منفردة ومثناة (اي الوزير وذي الوزارتين) اراذل الدائرة ، واخابث النظار ، فضلاً عن زعانف الكتاب والخدمة .

قسمت الاندلس بعد سقوط الامويين ، الى تسع عشرة مملكة منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية و بلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطليطلة وباجة ولشبونة وغيرها . وقد كان يخشى بعد هذا التفرق وتراجع امر الدولة الاموية ان تسقط الاندلس دفعة واحدة ولكن قدر الله ان يكون ملوك الجلالقة وقشتالة وغيرهم مشتتة كلمتهم متفرقة اهواؤهم وقيض للبلاد دولة اخرى جديدة قوية جمعتها من الجنوب اي من المغرب الاقصى وهي دولة المرابطين نافرج بها عن العرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل الادفنش سنة ٤٨٠ وانتصر عليه وكانت البلاد الى البوار بسبب استيلاء النصارى عليها واخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة .

ثم عادت احوال الاندلس فاختلت اختلالاً مفرطاً آخر دولة امير المسلمين علي بن يوسف اوجب ذلك « تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وايثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على اهل الجزيرة ، وقلوا في اعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . » . حتى جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبل بدعوة عقلاء الاندلس وامرائها وقد كانوا يدعونهم الى نصرتهم بضروب الفصاحة من الشعر والنثر ويستنفرون الناس من العدوة .

لما اشتد الحصار على اهل اشبيلية سنة ٦٤٥ صنع ابراهيم بن سهل الاسرائيلي قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدوة ويستنصر بامراء العرب وذلك اذ كان العدو عليها قال فيها :

يا معشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحمية كابراً عن كابر
ان الاله قد اشترى ارواحكم ... بيعوا وبيعتكم وفاء المشتري

انتم احق بنصر دين نبيكم ... وبكم تمهد في قديم الاعصر

الى ان قال :

والخيل تفجر في المرابط عرة ... الا تجوس حريم رهط الاصفر
كم نكروا من معلم ، كم دمروا ... من معشر ، كم غيروا من مشعر
كم ابطلوا سنن النبي ، وعطلوا ... من حلية التوحيد صهوة منبر

الى ان قال :

عند الخطوب النكر يبدو فضلكم ... والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الاسلام شخصاً جاءكم ... عمداً بنفس الوامق المتحير
ولو انه نادى النصير لخصكم ... ودعاكم يا امرتي يا معشري

نعم كانت التفرقة بين امراء العرب في الاندلس مما علم اعداءهم كيف يتخذون ليدفعوهم عن ارضهم كما وقع للعرب في صقلية سنة ٤٣١ فانهم بعد ان دافعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورمانديين والروسيين والفاكريكيين قسموا صقلية الى امارات صغرى فانشأوا جمهورية في بلرم واخرى في سرقوزة وكان ذلك من اكبر الدواعي في زوال سلطانهم . لا جرم ان ضعف الوازعين الديني والمدني من ميل القوم الى الراحة والدعة وضعف الاخلاق الحربية فيهم وانتشار الفوضى في احكامهم كان منه ان تأذن الله بذهاب ريحهم لا كما يدعي بعض العامة من ان رواج سوق الشعر كان السبب في زوال الاندلس وتبديد شمل اهلها فقد كان الشعر عندهم من جملة المثليات لان للعرب عامة غراما به والادب وسيلة الى العلوم كافة والعرب امة أولعت منذ عرف تاريخها بالفصاحة والبلاغة .

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والاسبان والبرتغاليين في المدة التي ارتفعت فيها اعلام المسلمين على الاندلس يدرك ان القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة في اكثر الايام ولكن تكتب الغلبة للفريق الذي كان جنده منظماً احسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الاندلس يعتمدون على جنود لهم من الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين كان زعماء الاسبان يصرفون ايام شبابهم في تعلم الضرب بالسيف

والرمح لقتال اعدائهم [1] والعرب لا يجوزون ان يستبدلوا العادات الحربية باعمال الزراعة وما في المدنية الراقية من التمتع والهناء فكان الناس في الممالك النصرانية يضطرون الى الخدمة في الجندية ويرافق الاشراف ملوكهم الى الحرب مع اتباعهم .

اما العرب فلا يخرج احدهم الا الى الجهاد واذا خرج فيكون خروجه على الاغلب متكررًا لمدةٍ معينة فكانت اوضاع الاسبان حربية محضة تكون لهم بها الغلبة في القتال اما في البحر فكان العرب اشد بأسًا واقوى اساطيلَ ولهم في كل فرضة من فرض الاندلس سفن معدة وقداقاموا لهم دور صناعة في المرية وطرطوشة وطرخونة وكانت معامل اشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفنًا جديدة تمخر في عرض البحار .

استولى الملوك من بني الاحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا الكلام في ذلك وهم الذين استولوا على بقايا مجد العرب بعد ان انتصر سلطانهم سنة ٦٦٣ هـ على الفرنج واسترجع منهم اثنين وثلاثين بلدًا من جملتها اشبيلية ومرسية ثم عاد العدو واخذ تخنقهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم في الداخل على الجملة ولما دب الهرم في جسم دولتهم وقوي الاسبان باتحاد ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك الاراغون اي باتحاد المملكتين الرئيستين في الشمال تأذن الله بفناء الاندلس فلم يبق امامهم الا التسليم والاستسلام وفي ذلك كان هلاكهم وبوارهم .

(٢١) جبل طارق وطنجة

كان جبل طارق الذي نسب الى طارق بن زياد فاتح الاندلس وهو المكان الذي

(١) وصف لسان الدين امة قشتالة بقوله : وحال هذه الامة غريب في الحماية الممزوجة بالوفاء والرقة ، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية ، عادة العرب الاول . واخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال ، والزحف على الاقدام ، اميرهم ومأمورهم ، والجثو على الارض ، او الدفن في التراب ، والاستظهار في حال المحاربة ببعض الالحان المهيجة ، ورماتهم فيهم عربية جافية ، وكلهم في دروع ، ولا لجام عندهم ، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع ، ورماتهم يسبقون الخيل في الطراد ، وحالهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب اه .

بلغه في جيشه اواخر المئة الاولى بايدي العرب مدة استيلائهم على الاندلس فلما دالت دولتهم عاد الى الاسبان ولبث في حكمهم الى القرن الثامن عشر واستولى الانكليز عليه في سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الاسبان في سنة ١٧٠٤ — ١٧٧٩ بمعاضدة الاسطول الفرنسوي للاستيلاء عليه فلم يستطع الاسطولان الفرنساوي والاسباني تخليص هذا الحصن من ايدي الانكليز.

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ متراً وهو متصل مع القارة الاوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة. وقد جعل الانكليز فيه قلعة شحنوها بالمدافع فجاءت من احصن ما في العالم من الحصون. فهو في الحقيقة قطعة من ارض اسبانيا ولكنه انكليزي الحكم والنظام يشرف على البحرين المحيط والمتوسط ويأخذ بمخنق السفن الغادية والرائحة بين القارات الثلاث اوربا واميركا وافريقية.

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ الفاً ماعدا الحامية الانكليزية واهلها مزيج من شعوب اوربا واميركا وآسيا وافريقية. كذلك ابنيتها مزيج من طراز الابنية عند الامم الكثيرة واللغتان الشائعتان هنا الاسبانية والانكليزية. ولا يحق اليوم لغير الانكليزي التبعة ان يقتني ملكاً في هذا المرفأ الضيق النطاق ويراقب الاجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن شارع واحد ضيق بني في الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهي اشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر.

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت باجزيرة الخضراء آخر عمل اسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة.

وعلى بضعة اميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر في بر العدوة من ثغور الغرب لاقصى واول ارض افريقية يقع نظر الخارج من القارة الاوربية عليها فينتقل السائح انتقالاً فجائياً من مدنية رافية الى مدنية مشعثة منحطة وليس بين القارتين الاوربية والافريقية الا مجاز صغير كان العرب يسمونه الزقاق.

اغتنمت فرصة انتظار الباخرة الانكليزية التي تسافر من جبل طارق الى مارسيليا في يومين فزرت طنجة وطوفت في ارجائها وسكانها اليوم نحو اربعين الفاً فيهم كثير من الاسبانيين والبرتغاليين والطليان والفرنساويين وهي من المدن التي استعمرها الفينيقيون

في مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقي على كثرة ما تداول عليها من الامم بعد الاسلام فقد استولى عليها البرتقاليون سنة ١٤٧١م والانكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيس سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذاك الحين في يد المراكشيين وهي الآن مشاع لكل الدول او تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيس والاسبان كما يتنازعون على السبق في حماية بلاد الغرب الاقصى . ويقيم فيها كثير من معتمدي الدول والسلاطين المخلوعين من امراء المسلمين في الغرب الاقصى امثال مولاي عبد العزيز ومولاي الحفيظ .

نعم ان المراكشيين مازالوا في هذا الثغر وماوراءه من البلدان على تصالبهم في عاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم من اوربا وهم منها على ثلاث ساعات بحراً لا يفصلهم عنها الا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلاً « وهو اضيق موضع فيه واوسع موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلاً » قال الفقيه المرادي المتكلم القيرواني بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله الى مدينة سبتة :

سمعت انجار وقد حدثوا ... بشدة اهوال بحر الزقاق
فقلت لهم قربوني اليه ... لأشفه من حر يوم الفراق
فلما فعلت جرت ادمعي ... فعاد كما كان قبل التلاق

(٢٢) علم المشرقيات في اسبانيا

كان على اسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون ان تكون اول دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الاواخر لان الارتقاء يتبع بعضه بعضاً ولا تتفق امة الا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ ان اول مدرسة [1] عربية انشئت في طليطلة اوائل القرن الحادي عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الاسبانيين على مناحي العرب وفي سنة ١١٣٠ انشأ رئيس اساقفة طليطلة مدرسة للتراجمة في هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والافكار العربية في اسبانيا المسيحية . وكان من نتائج وقعة العقاب ان حررت اسبانيا من رق العبودية للمسلمين وادرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضي القديم وانهم في حاجة بعد الى ان يتعلموا من معلميهم القدماء ومنافسيهم الالداء

(١) مجلة المقتبس المجلد الرابع .

من العرب فحاول الفونس العاشر ان يجعل لاسبانيا المسيحية ما عمله العرب لاعلاء شأن الاسلام وذلك بالاخذ باحسن مافي الحضارتين ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة ١٢٥٠ في اشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربي الصرف واستدعى الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار احسن المعارف النافعة وهي اقرب الى التسامح من المدرسة الاولى اذ كانت تجمع الى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني .

كان لليهود يد طولى في نقل العلوم من العربية الى اللاتينة لان المرابطين والموحدين الذين استولوا على الاندلس بعد الامويين كانوا الى التعصب . بددوا كتب الفلسفة واحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الاسرائيليين لضاع كثير من اوضاع مدنية العرب في الاندلس .

ثم بدا لرجال الدين من الاسبان ان يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فاخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع احد الدومنيكيين اول معجم عربي باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفي سنة ١٣١١–١٢ امتدح البابا اكليمنضس الخامس في احد المجامع الدينية من انشاء درس لتعليم العربية في مدرسة صلمنكة وفي اواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة في نشر اللغات الشرقية بين ابناء رهبنتهم ومنها العربية وانشأ صاحب اراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقية في ميرامار وانشأ المجمع الديني في طليطلة يتفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية اشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولاسيما الفرنسيسكانية الى القرن الثامن عشر في اسبانيا هي القائمة بدعوة المستشرقين الى درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه .

ولم تنل مدرسة صلمنكة شهرة طائلة في اوربا حتى غدت احدى المراكز العلمية الاربعة وهي باريز واكسفورد وبولون الا انها بتأثير العلم العربي اقامت على اساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن في مدرسة صلمنكة في اواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للدرس منها حلقة لليونانية واخرى للعبرانية وثالثة العربية فاصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب .

ولما اعلن الاسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل اخذوا ينصرون المسلمين بالاكراه وفي سنة ١٥٠١ — ٢ طردوا من مملكتي قشتالة وغرناطة كل من ظلوا محافظين على الاسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء ويخلوا عن علومهم لانها افسدت افكارهم وزهد المسيحيون في علوم المسلمين وفاء في اذهانهم انها خطر عليهم .

صدر امر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد ان احرق في ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ان تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك في نصف قرن ولولا المترجمات منها الى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد . واخذ ديوان التفتيش الديني على نفسه ابادة كل اثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا ابداء اسفهم الا سراً وفي الكتب العربية المكتوبة بالعجمية اي المكتوبة بحروف اسبانية دليل على تعلق اولئك المتنصرة بقديمهم .

وفي سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصرة المسلمين من استعمال اللغة العربية واراد هم على ان ننزع من اسمائهم التراكيب العربية وعن اجسامهم الالبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه في سواد ابناء المذهب الكاثوليكي ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة فاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية في اسبانيا غير ذكراهما وزهد القوم في القرنين السابع عشر والثامن عشر في تعليم العربية في اسبانيا اللهم الا على طريقة افرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما اتهم من يتعلمها بالالحاد بعدان كان اهل الطبقة العليا من الاسبان ايام عز العرب يحلون بافوال فلاسفة العرب كلامهم ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستفيد لا درس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العربية من امارات الظرف والكياسة .

وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيسكان في اشبيلية من اساليب تعلم العربية الا اثر ضئيل واراد شارل الثالث ان يعيد الى اسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهباناً موارنة من سورية ليعلموا الاسبانيين لغتهم الاصلية الثانية ويحق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر ان يباهي باساتذة متمكنين من اسرار العربية في اسبانيا .

ولما ادخل الاصلاح الى الكليات القديمة في اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس في جامعات اسبانيا رسمياً ولما استلمت الحكومة الاسبانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دون رجال الدين او الملك او الاشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التي كانت لها في شبه جزيرة اسبانيا من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها في قائمة دروس التعليم العالي واخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمي التاريخي ومن المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة في كاتدرائية طليطلة · دع مكتبة خزائن كابانكوس وكودرا وريبيرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات ·

والعربية اليوم تدرس رسمياً في كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة وصلمنكة وبلنسية واشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة الا في العاصمة وبعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الاسبان منذ اواخر القرن التاسع عشر كتباً عربية كثيرة متعلقة بتاريخ الاندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التي اشتغلوا بها ومنها الجيد والكثير مملوء بالاغلاط والتحريف وهو دون ما نشره الهولانديون والجرمانيون والبريطانيون والطليان من هذا القبيل من حيث الصحة والاتقان ·

وانت ترى ان الاستشراق العربي كان الدين هو الداعي اليه كما كان في معظم بلاد اوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج كلاهما باسم الاستعمار ولكن الحصول في شبه جزيرة ايبريا اي في اسبانيا والبرتقال قليل · وفي جامعة لشبونة عاصمة البرتقال درس عربي اليوم ومدرسه الاستاذ لوبيس الذي نشر بعض الكتب العربية فهو المرجع في البرتقال اليوم كما ان الاستاذ آسين مرجع الاسبان في مجريط وكلاهما عضو في المجمع العلمي العربي ·

بقي بحثان ضاق النطاق عن نشرهما وهما (اسبانيا بعد العرب) و (البرتقال بعد العرب) ننشرهما في كتاب على حدة مع مقالات الاندلس وغيرها ·

محمد كرد علي